الزباء

(زنوبيا)

نقلا عن جيبون مؤرخ الرومان

الزباء هى ملكة تدمر وسيدة الشرق الشهيرة . وهى المرأة الوحيدة التى تغلبت مهارتها الفائقة على الاستكانة والخمول اللذين طبعهما جو القارة الاسيوية وأخلاق أهلها على طبيعة بنات جنسها . وتفوقت بذلك — إذا استثنينا سميراميس — على جمع السيدات اللاتى أنجبتهن اوربا الحديثة فبهرن العالم بحكمهن المجيد

والزباء من سلالة ملوك مصر المقدونيين (البطالسة) تحاكى سالفتها كليو بطرة جمالا وحسنا ، وان كانت تفضلها عفافا وإقداما . فقد كانت الزباء تعتبر أبهى سيدات عصرها شكلا وأكثرهن شجاعة : كانت سمراء اللون . ذات أسنان منضدة كعقد من الدر أو زهرة من الأقحوان ، وكان لعينيها بريق غريب يمتزج بحلاوة جذابة . وكان صوتها مع شدته جميلا رخيم الحواشى ، ومداركها العالية كان يثقفها البحث والاطلاع فلم تكن تجهل اللغة اللاتينية وكانت ملمة باللسان الاغريقى واللغة السريانية ، كما أنها كانت تجيد اللغة المصرية القديمة . وقد وضعت فى تاريخ الشرق كتابا نفيسا ضارعت به هوميروس وأفلاطون .

تزوجت هذه المرأة الكاملة من أذينة (Odenathus) الذى ارتقى بنفسه من مركز عادى حتى تبوأ عرش الشرق . فأصبحت بزواجها هذا صديقة ورفيقة لاحد الأبطال . وكان زوجها يلهو — فى الفترة بين الحروب — بالصيد وقنص أنواع الحيوان الضارية كالسباع والدباب شأن الملوك المهرة فى الحروب . ولم تكن زنوبيا أقل منه مهارة فى هذه التسلية الخطرة ، وذلك لأن بنيتها لم تكن ليتسرب اليها الكلال وعزيمتها لا يطرقها الملال . ومن عاداتها أنها طرحت جانبا الركوب فى مركب مغطي : وكثيرا ما كانت تبدو على ظهر جوادها فى حلة عسكرية أو تسير على قدميها أميالا عدة فى مقدمة جيوشها .

وقد يرجع الفضل فى نجاح زوجها أذينه نجاحا باهرا الى ما تحلت به من فطنة وقوة نادرتى المثال . فكانت انتصاراتها على الملك العظيم ، عاهل الرومان ، أساسا وطيدا لشهرتهما وسلطانهما المشتركين

قتل أذينه عام ٢٦٦ قبل الميلاد بيد ابن أخيه فى حفلة صيد انتقاما منه لإهانة ألحقها به ، فأجهزت زنوبيا على قاتله بعد زمن قليل على مذبح ذكرى زوجها المحبوب وتربعت فى دست العرش ما يزيد على خمس سنين جمعت فيها حولها أخلص أصدقاء زوجها تسترشد بآرائهم فى حكم تدمر وسوريا والشرق . ورأى الرومان خطأ أن يسحبوا الامتيازات التى كان يتمتع بها أذينة بصفة خاصة أيام حياته فوجهوا اليها جيشا عرمرما كان نصيب فائدة التقهقر المعيب مع فقدان رجاله وسوء سمعته ، وكانت مدة حكم الزباء المجيدة ممتازة بأرشد الوسائل السياسية . اذ كانت تكظم غيظها وتخفف من حدتها فى مواطن العفو والغفران . وتسدل ستار السكوت الرهيب على عوامل الشفقة والرحمة فى مواقف العقوبة والقصاص . وقد بلغ من شدة اقتصادها أن رميت بالبخل والتقتير غير أنها كانت تبدى فى ظروف عدة دلائل الكرم والسخاء . وكانت البلاد المجاورة لها كالعرب وأرمينا والفرس تخشى عداءها وتخطب من وقت لآخر ودها . وأضافت زنوبيا إلى ممتلكات زوجها - التى كانت تمتد من نهر الفرات إلى بحر الأرخبيل - الأقاليم المصرية الغنية بتربتها الآهلة بسكانها فاسترجعت بذلك تراثا ثمينا من تراث أجدادها واستحقت بعملها هذا احترام عاهل الرومان وتبجيله إياها على أن سلوك زنوبيا كان يشوبه بعض الابهام . إذ أنها جمعت بين عادات أمراء الرومان المألوفة وفخامة الملوك الأسيويين . وربت أولادها الثلاثة تربية لاتينية . وكثيرا ماعرضتهم على جيوشها فى الوشاح الأرجوانى الامبراطورى شأن ملوك الرومان . فى حين أنها حفظت لنفسها تاج الملك مع لقب «ملكة الشرق» العظيم

ولقد كانت زنوبيا تفقد صيتها الذائع وشهرتها الواسعة لو تقاعدت فسمحت لامبراطور الغرب بأن يقترب مائة ميل من حاضرة ملكها ، على أن حظ الشرق كان قد تقرر فى واقعتين : أولاهما قرب انطاكية وثانيتهما نت ملكة تدمر تثير حماسة رجالها بوجودها فى طليعتهم

وتبعث فيهم روح الاقدام بما كانت تبديه من ضروب الشجاعة والفروسية، وكانت قوات زنوبيا العظيمة مؤلفة من نشابين وفرسان مدرعين بملابسهم الحديدية ، فلم يستطع فرسان أورليان الوقوف أمام هجماتها ففروا هاربين طوعا أو كرها وتبعهم التدمريون ،ثم عاد المتحاربون فاشتبكوا فى وقائع فردية تغلب فيها جنود الأمبراطور ورأت زنوبيا أنها لاتقدر أن تحشد جيشاً آخر لانضمام الأمم التي كانت خاضعة لها إلى لواء خصمها المنتصر وأنفذ الأمبراطور أحد قواده لغزو مصر . وكانت تدمر آخر ملجأ لزوجة أذينة فانسحبت إلى داخل جدرانها وأعدت العدة لأشد مقاومة ثم أعلنت فى شجاعة الأبطال أنها ستقرن أخر لحظة من أيام سؤددها وسلطانها بآخر نسمة من نسمات حياتها

وقصد الأمبراطور أورليان إلى تدمر فكان عرب الصحراء يهاجمونه من آن لآخر على غرة فسلبوا من جيشه كثيرا من المتاع والرجال ولكن هذا لم يثن من عزيمة الأمبراطور الذى كان يسير فى مقدمة قواته برباطة جأش على الرغم من إصابته بنشاب صوبه اليه أحد أعدائه . وإليك بعض ماقاله عن هذه الحرب :

«يذكر الرومان بامتهان هذه الحرب التى أشن غارتها على أمرأة ولكنهم يجهلون حقيقة الزباء وقوتها. وأنه ليعسر عليهم أن يحصوا معداتها الحربية من أحجار وسهام أو يعدوا كل أنواع المقذوفات والمنجنيقات التى تحصن بها كل جزء من أسوار حاضرتها وإنهم ليصعب عليهم أن يدركوا هول الآلات الحربية التى تقذف النيران والسوائل المفرقعة الملتهبة على مهاجميها، أجل لقد شدد خوف الزباء من العقاب عزيمتها وأولاها شجاعة، فائقة تدافع بها دفاع المستيئس المستميت، على أنى أعتمد فى قهرها واذلالها على مساعدة آلهية رومية الذين شملونا برعايتهم فى حروبنا السابقة »

غير أن العاهل — على الرغم من اعتقاده فى معونة آلهته عرض على الملكة شروطا حسنة للتسليم سمح فيها لها بتقهقر شريف ، ووعد بأن يمتع رعاياها بجميع امتيازاتهم القديمة. ولكن الزباء أصرت على رفض شروطه وقرنت رفضها بالازدراء والاحتقار

اجتياز الصحراء قافلين . ويشجعها عليه اعتقادها - بحق - ان ملوك الشرق وخاصة ملك العجم سيقفون مدافعين عن حليفتهم الطبيعية، غير أن حظ اورليان ومثابرته تغلبا على كل عقبة فى سبيله . إذ اتفق أن توفى (سابور) شاه العجم فى هذا الوقت فار تبكت أحوال الفرس وبدد الامبراطور الجيوش الفارسية التى كانت معدة لنجدة تدمر أو اشترى ذمم قوادها . كما أنه عاد إلى صفوف الرومان ذلك الجيش الذى كان قد وجه لغزو مصر بعد أن نجح فى استرجاعها الى لواء الامبراطورية ، فتضاعف به عددها وزادت قوتها وقوى بطشها . كل هذا حمل الزباء على الفرار من وجه خصمها فامتطت أجود هجانها . وما كادت تصل به الى شاطئ الفرات - على بعد ستة أميال من تدمر - حتى لحق بها فرسان الامبراطور وألقوا القبض عليها وأرجعوها أسيرة بين يديه . وسرعان ما سلمت حاجزتها بعد ذلك . ولكنها عوملت بسخاء لم يكن منتظرا ودخلت فى حوزة الامبراطور جميع أسلحة تدمر وخيلها وإبلها وكل ما فيها من خزائن الذهب والفضة والحرير وكنوز الأحجار الكريمة . ثم ترك الامبراطور فى تدمر حرسا من ستمائة نشاب وعاد الى أماسيه حيث أخذ فى توزيع المكافآت وانزال العقوبات بعد تلك الحرب الضروس التاريخية

وحين مثلت الزباء بين يدى العاهل وسألها مؤنباً « كيف اجترأت على حمل السلاح فى وجه ملوك الرومان » كان جوابها أنها تأنف أن تقيم وزنا لامثال « اريولاس » و « جالياس » ولكنها فى الوقت نفسه لايسعها الا أن تعترف بأنها أسيرته وخاضعة لحكمه . ولما كانت قدرة الاحتمال عند النساء غير طبيعية فانها قبل أن تكون ثابتة قوية لذلك فارقت الزباء شجاعتها فى هذه الساعة الرهيبة وأخذت فرائصها ترتعد كلما صاح أحد الجنود طالبا اعدامها ، وسرعان ماغاب عن ذهنها سخاء كليوبطره - عند يأسها - تلك التى اتخذتها مثالا تحتذى حذوه - وسرعان مادفعت لحياتها ثمنا غاليا من عظيم شهرتها وأرواح أصدقائها فنسبت الى مشورتهم وأثرها فى نفسها الضعيفة جريمة مقاومتها العنيفة . وصبت على رءوسهم جام غضب أورليان العاتى وأنزلت على هاماتهم شر انتقامه القاسى

وما كاد أوريليان يجتاز المضيق الواقع بين آسيا وأوربا حتى علم أن التدمريين قتلوا الحاكم وأعدموا الحراس الذين تركهم خلفه . وأنهم رفعوا راية العصيان وشقوا

عصا الطاعة فولى وجهه شطرهم على الفور و أنزل بالمدينة التعسة أشد صنوف العقاب. فاستحال ذلك المركز الكبير — مركز التجارة الواسعة والفنون الجميلة . مركز الزباء العظيمة — الى بلد صغير محصن مجرد عن وسائل الدفاع فقرية حقيرة . وأصبحت مساكن الثلاثين أو الأربعين أسرة الباقية من سكان تدمر عبارة عن أكواخ من الطين داخل سور أحد معابدها القديمة الفخمة.

* * *

ولم يبق بعد ذلك أمام أورليان ذى العزيمة الحديدية الا أن يقمع فتنة فى وادى النيل أثارها أحد الخارجين عليه أيام ثورة تدمر . و كان هذا يدعى المسمى فرماس (Firmus)يفخر بصداقته لاذينه و زنوبيا و كان تاجرا مصريا ثريا نشأت بسبب تجارته مع الهند صلات وثيقة بينه وبين العرب وقبائل البلة القاطنين على جانبى البحر الأحمر وصعيد مصر. وقدمنى «فرماس» المصريين بذيل حريتهم فاذكى فى نفوسهم نيران الثورة . ثم سار على رأس جموعهم المتحمسة حتى دخل مدينة الأسكندرية حيث ارتدى الوشاح الأرجوانى الامبراطورى وصك النقود باسمه وأصدر اللوائح والقوانين ونظم جيشا عظيما زعم أنه يستطيع الانفاق عليه من تجارة الورق التى كان يحترفها ، ولكن هذا الجيش لم يكن يصلح للدفاع أمام أورليان فانهزم «فرماس» و وقع أسيرا فى قبضة أعدائه الذين شدوا وثاقه على آلات التعذيب الجهنمية حتى فارقته الحياة. وحق لأورليان بعد هذا أن يهنئ مجلس الشيوخ و يهنئ الشعب ويهنئ نفسه بأنه وطد دعائم السكينة والنظام فى أرجاء العالم الرومانى فى مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات

* * *

ولم يكن بين القواد الرومان من هو أحق من أورليان بالفخار والحفاوة. و لم تشهد روما — منذ نشأتها — استقبالا أفخر وأبهى من استقبال هذا البطل العظيم: كان فى مقدمة الموكب عشرون فيلا وأربعة نمرة ملكية وما ينيف على مائتى حيوان غريب من الأقطار الشمالية والشرقية والجنوبية. وكان يتبع هؤلاء كنوز آسيا وخزائن ملكة الشام. ثم سار ممثلو الممالك القاصية كاثيوبيا والعرب والفرس وتركستان والهند والصين، كل فى لباسه الثمين المزركش، فزادت بمشهدهم شهرة ملك الرومان ونفوذه ، و بعدهؤلاء عرضت

الهدايا التي قدمت الى الامبراطور، وكان أبهرها للعيون وأجذبها للالباب مجموعة من التيجان الذهبية .ثم جاء دور الأسرى العديدين من الأقاليم المختلفة فكانوا يسيرون مكرهين فى صفوف طويلة كل طائفة منها يميزها علمها . وكانت زنوبيا ملكة الشرق بين الأسرى الذين اتجهت اليهم الابصار وأشرأبت لرؤيتهم الاعناق ، كان شخصها الجميل مكبلا الأغلال العسجدية يكاد قوامها البديع التشبيه بغصن البان ينوء بعبء الاحجار الكريمة المحلاة بها ملابسها وهى تمشى على قدميها أمام مركبها الفخم الذى طالما تاقت نفسها الى الدخول به غالبة من أبواب روما، وكان خلف مركبها آخران، أحدهما لاذينه والثانى لملك العجم . أما مركب انتصار أورليان فكان يجره فى هذا الموكب أربعة ظباء يعقبه عظماء الشيوخ وكبار الشعب وقواد الجيش

على أن أورليان عامل أسراه ومنافسيه معاملة رحيمة قل أن تصدر من الغازين الأقدمين فأمر اؤه الذين اخفقوا فى الدفاع عن عروشهم أو حريتهم شنقوا غالبا فى السجون عقب احتفال الحفاوة بمقدم الأمبراطور والمغتصبون الذين غلبوا على أمرهم بسبب خيانة أحد إتباعهم عفا عنهم وسمح لهم بعيشة رغدة وحياة هادئة طيبة أما زنوبيا فقد وهبها الأمبراطور قصرا بديعاً فى «تيفولى» على بعد نحو عشرين ميلا من الحاضرة الرومانية حيث تمتعت بحياة سعيدة راضية وزوجت بناتها من أسرات نبيلة وظلت شجرة ذريتها باسقة الأغصان حتى القرن الخامس بعد الميلاد

احمد ابراهيم

مدير التعليم بأسيوط

(العصور) تشكر للاستاذ المربى الكبير أحمد بك ابراهيم موافاته لنا بهذا المقال التاريخى المفيد، وبهذه المناسبة نذكر أن زميلتنا مجلة (الاخاء) نشرت فى عددى مايو ويونيو مقالا ممتعاً للاستاذ على محمد البحراوى نقد به الأوبرا الرائعة (الزباء) التى نظمها الأستاذ الكبير الدكتور أبو شادى وأصدرتها المطبعة السلفية بالقاهرة منذ سنتين